فولتير

ألف هذا الكتاب: اندريه موروا

وعربه الاستاذ عبدالحمد الدواخلى

أندريه موروا الكاتب الفرنسى العالمى استاذ هذا اللون من الكتابة.. أعنى كتابة التراجم. فقد كتب عن «شيلى» وعن «ديكنز» و «بيرون» وادوارد السابع كما كتب عن «تورجنيف».

وهو فى تراجمه كلها وضع الأمانة التاريخية نصب عينيه كما تحرى الدقة البالغة فى سرد الأحداث ورسم الأشخاص.

ولد فولتير ضعيفا ولكنه سرعان ما استعلى على الضعف وأصبح على جانب كبير من حيوية النفس والجسم بل إنه وهو فى الثالثة من عمره كان يتلو عن ظهر قلب قصص لافونتين!!

وفى العاشرة من عمره، ألحق فولتير بمدرسة لويس الأكبر وكان يعلم بها اليسوعيون فطبعوه بطابعهم وسجلوا له أنهم لم يلقوا من قبل ذهنا تفتح لجميع المعارف ونضج قبل أوانه مثل ذهن هذا الطفل.. وتعلقوا به اذ راعهم وهو فى الثانية عشرة من عمره يقرض الشعر سهلا طريفا فى غير عناء.

وحينما غادر المدرسة كان يشعر تماما بكفايته حتى إنه قال لأبيه حين طلب منه أن يتخذ لنفسه مهنة: لا أريد لنفسى غير مهنة الأدب.

وذاع صيت فولتير.

وبدأ فولتير يعامل كبار السادة الذين أصبحوا أصدقاءه معاملة الند للند فكان يسألهم حين يتخذون أمكنتهم على المائدة: هل نحن هنا جميعا أمراء أو نحن هنا جميعا شعراء؟

أقول المهم عنده أن يكونوا جميعا على حد سواء تحت أى اسم من الأسماء وهذه اللفتة منه لها معناها ومدلولها ومردودها فى عصر كان يعتبر الأديب نديما وهو ما رفضه، فى إباء، فولتير.

سجن فولتير فى مطلع حياته فى الباستيل فأراد أن يصبح أكبر شاعر حماسى فى فرنسا.. وفى سجنه ألف أولى أناشيد ملحمته «الهزياد» وهى قصيدة طويلة فى هنرى الرابع.

وخرج فولتير من السجن.. بعد ثمانية عشر شهرا قضاها فى الباستيل.. وبعد خروجه ببضعة أيام لقى الوصى على عرش فرنسا الذى كان أمر بسجنه فقال له فولتير فى سخرية الواثق بنفسه وفى اعتزاز الأديب

مولاى.. إنى المعترف بفضل جلالة الملك حين تعهد بطعامى، ولكنى أرجو ألا تتعهد سموك بعد الآن بمسكنى.

وجرت العادة فى ذلك العصر، أن يعقب الخروج من الباستيل نفى قصير الأجل.. فدعا الدوق دى بتين، فولتير ليقضى فى قصره بسولى مدة هذا النفى.. كان الباستيل قد هد كيان السجين فقبل فولتير، الدعوة لأنه كان فى حاجة إلى هواء الريف.

وضاعف من سروره أنه هوى «دى ليفرى» وهى فتاة كانت تعد نفسها للمسرح فطلبت إليه أن يكتب لها أدوارا تمثلها.

وفى ذات يوم غضب الفارس دى روهان شابو من اعتداد فولتير بنفسه وإن كان هذا الفارس لا يشرف البيت العريق الذى ينتمى إليه سأل الفارس، الدوق دى سولى: من هذا الذى حين يعارضنى يتكلم بصوت مرتفع؟ فأجابه فولتير: «سيدى الفارس، إنه رجل لا ينتمى إلى اسم كبير.. ولكنه يشرف الاسم الذى يحمله».

فغادر الفارس، المائدة.. وهنا قال الدوق دى سولى لفولتير:

«نحن سعداء إذا خلصتنا منه»..

ولكن دى روهان شابو حفظها له.. فبعد بضعة أيام جاءه وهو لا يزال فى قصر الدوق دى سولى، رسول يخبره بأن بباب القصر من يطلبه. فنزل ورأى عربة بها رجلان طلبا منه أن يتقدم إلى باب العربة. فذهب ولم يأخذ حذره، ولم يكد يقترب من العربة حتى أمسكا به وضرباه بالعصى على كتفيه.. وكان الفارس فى مقدمة العربة يشرف على هذه الهمجية فقال: «لا تضرباه على رأسه فقد يخرج منها شىء طيب»!!!

حتى عدوه لم يملك إلا أن يحترم (رأسه).

ماذا أقول قد تخرج الحكمة من أفواه الخنازير.

ولكن الذى يحز فى النفس أكثر أن أصدقاء الدوق دى سولى، من الأشراف حين صعد إليهم فولتير معذبا وملابسه غير منظمة، ورجاهم أن يذهبوا معه إلى رئيس الشرطة ضحكوا ورفضوا إجابة طلبه بل قالوا إن المعتدى فرد ينتمى إلى أسرة روهان ولم يضرب إلا شاعرا.

عزاؤنا أنهم ذهبوا جميعا وبقى «الشاعر» فى فولتير.

سجن فولتير مرة ثانية لأنه تهدد غريمه بالمبارزة وخرج من الباستيل إلى انجلترا ممرورا كسيفا. كتب فولتير إلى صديق له يقول:

إنى أعلم أنه بلد تمجد فيه الفنون جميعا ويكافأ عليها، وأن فى هذه المملكة تفاوتا فى الطبقات ولكن النبوغ هو الفارق الوحيد بين الرجال.

ومن الطريف أن فولتير كان يسير يوما كما تزعم إحدى الروايات، فى شارع فتبعه فوج من رعاع الناس لأن ملابسه الأجنبية لم ترق فى نظرهم، فصعد على مقعد، وهدأ من روع المعتدين عليه حين قال لهم:

(أيها الانجليز البواسل ألا يكفينى بؤسا أننى لم أولد بينكم؟» وقد صفق له الجمهور وحمله على أكتافه إلى أن أوصله إلى منزله بعد أن كان يسخر منه.

ولكن للوطن نداء لا يخطئه القلب والأذن

عاد فولتير إلى فرنسا.. وتخفى أول الأمر وأقام فى سان جرمان عند صانع للشعر المستعار.. ومن هناك كتب إلى الوزير موربا يطلب منه (أن يتركه يجر أغلاله فى باريس)!

كان فولتير يحب المال وقد تعلم فى انجلترا أن المال يكفل لصاحبه الاستقلال.. فبدأ يتصل برجال المال والأعمال بل تاجر وربح وكون ثروة لا تجتمع عادة لأديب.. فالأديب ثروته «الكلمة الشريفة» وهى عنده تفوق الثروات جميعا.

وفى عام ١٧٣١ نفى فولتير من فرنسا مرة أخرى بسبب رأى.. فقد كانت «ادرين ليكوفرير» ممثلة عظيمة أعجب بها فولتير.. ولما ماتت، رفضت الكنيسة أن تقام لها الطقوس الدينية.. وكان هذا موقفها من الممثلين جميعا ثم دفنت الفنانة على شاطىء السين فى أرض موات. فسخط فولتير وشيع الجنازة ثم أعلن احتجاجه فى هذه الكلمات اللاذعة:

آه! هل أرى دائما أمتى ضعيفة
وأخلاقنا وقوانينا فى تعارض دائم؟
ماذا ألا يجرؤ الناس على التفكير؟
إلا إذا كانوا فى انجلترا وحدها؟
لو كانت «ليكوفرير» فى لندن لكان لها قبر
بين ذوى المواهب والملوك الأبطال

فعد هذا التمجيد لفتاة من فتيات المسرح شركا كبيرا.. ففر فولتير والتجأ إلى قرية من قرى نورماندیا.. وبعد قليل طبعت فى «روان» سرا «خطابات فلسفية» عن الانجليز يقول أندريه موروا إنه كان كتابا عجيبا ذا أثر خطير وإن كان بسيط العبارة قليل العمق ولكنه حقق غرض فولتير فى نقد العيوب السياسية وغيرها.

أحب «فولتير» مدام دى شاتليه.. كان يراها جميلة حين كان يراها نساء عصرها، دميمة!! حتى ابنة عمها مدام دكريكى قالت عنها:

كانت ابنة عمى عظيمة الجثة فى كل تقاطيعها.. إنها ذات قوة خارقة.. وهى آية فى الخرق، فكان جلدها مثل مبشور جوزة الطيب.

ومن الطريف تعليق اندريه مورما (ولكن هل لنا أن نصدق النساء حين يصفن امرأة كانت ذكية، ومحط الأنظار، استطاعت أن تستولى على لب أعظم رجال عصرها؟)

كان فولتير ينادى بموسوعية الثقافة ويقول: (كم كنت أود أن يكتب نيوتن روايات غنائية. ولو أنه فعل لزاد إعجابى؟.. لأنه يجب على الإنسان أن يمد روحه بكل الصور الممكنة. إنه قبس أودعه الله فينا فينبغى لنا أن نغذيه بكل ما نجده قيما.. يجب أن ندخل فى ذواتنا كل العوالم التى يمكن تصورها، وأن نعمل على أن تتفتح نفوسنا لكل العلوم والمشاعر.. على ألا يكون هذا كله فوضى.. فلكل شىء مكانه..

قاسى فولتير من النفى والتشريد فكان آمن سبيل له أن تكون إحدى قدميه فى مملكة وتكون قدمه الأخرى فى المملكة الثانية أو على حد تعبير فولتير: أن يكون ذا أربع أقدام..

ولعل أحد أسباب ولع فولتير بالمال واكتسابه حتى امتلك أربعة قصور!! اثنان منها على ضفة بحيرة جنيف- أقول أما كان يكفى واحد؟ واثنان على التخوم! ويعلل فولتير هذا وإن كنت أنا، على الأقل، غير مقتنعة بقوله (إنى أرتكز بيسارى على جبل جورا وبيمينى على جبال الألب، وأمام معسكرى بحيرة جنيف. أملك قصرا جميلا على تخوم فرنسا، و «منسك» النعيم على حدود جنيف، وبيتا فخما فى لوزان: وعلى هذا فأنا إذا زحفت من حجر إلى آخر أصبحت بمنجاة من الملوك والجيوش.

ولعل الدفاع الوجيه عن امتلاك شاعر القصور، أنه أتم بناء كنيسة بأن بنى لنفسه قبرا نصفه فى الكنيسة ونصفه الآخر فى المقبرة. وكان فولتير يقول بعد أن أقام كذلك مسرحا للتمثيل (سيقول الماكرون عن القبر إننى لست داخله ولست خارجه فلما أضاف إليه مسرحا للتمثيل قال مخاطبا صاحبه: (إذا لقيت الأتقياء فاخبرهم أنى أتممت بناء الكنيسة، وإذا قابلت الظرفاء فأخبرهم أننى أتممت بناء المسرح).

وفتح فولتير بعد أن اغتنى، داره للنزلاء وجيادهم. الثيران وحدها كما يقول اندريه موروا هى التى كان فولتير لا يستطيع تحملها من بين نزلاء «فرنى» جميعا وكان يقول (لقد ساءت العلاقة بينى وبين الثيران، لأنها تمشى فى بطء شديد لا يتفق مع حيويتى. إنها دائما مريضة، أريد مخلوقات تحرث الأرض بسرعة وتتوفر لها السلامة).

قال فولتير هذا، علما بأنه كان وقتها، معتلا ومع هذا يزاول ألف عمل بسرعة. كان يستيقظ من نومه فى الخامسة صباحا وينام فى العاشرة مساء وبينهما يشتغل بالأعمال الزراعية ويعنى بحظيرة تربية وإنتاج الخيول ثم يستقبل الزائرين الكثيرين الذين يفدون عليه، وكان يكتب ويملى رسائل لا حصر لها، وبحوثا وقصصا ومسرحيات.. وقد حول قرية «فرنى» إلى بلدة صغيرة غنية.. فأصلح الأراضى وبنى للمزارعين منازل أسكنهم إياها بأجر جد يسير.

وأنشأ مصانع للجوارب الحريرية وأرسل أول زوج صنع فيها إلى الدوقة «دى شوازل» قائلا (تفضلى بلبسه مرة واحدة ثم أطلعى بعد ذلك من تشائين على قدميك).

وأعد مصنعا «للدانتلا»، كما استقدم المهرة من صناع الساعات وبذل مجهودا شاقاً فى بيع الساعات كما لو كان يرعى مصالح امبراطورية فقد أوصى أصدقاءه فى باريس باقتناء ساعات

فرنى. ومن الطريف أنه كان يعلن عنها: (ان صنعها أكثر اتقانا من صنعها فى جنيف.. تستطيع الحصول هنا على ساعة دقاقة بثمانية عشر لويسا.. وهى تباع فى باريس بأربعين لويسا أرسل طلباتك ونحن فى خدمتك. ستحصل على ساعات جميلة جدا وعلى شعر رديء جدا إذا أحببت).

ومن طرائفه أنه كتب مرة تحت حماية السيد دى شوازل- نشرة دورية إلى سفراء فرنسا لدى الحكومات الأجنبية يرجوهم أن يوصوا خيرا بصانعى الساعات فى فرنى، قائلا: (إنهم يستحقون رعاية سعادتكم لأنهم يحترمون الديانة الكاثوليكية أشد الاحترام).

لم تزده الشيخوخة إلا حبا فى النشاط وإقداما على العمل وكان يقول:

كلما تقدمت بى السنون، وجدت أن العمل ضرورى.. وقد أصبح العمل على مدى الأيام، اللذة الكبرى وحل محل جميع الأوهام التى لم يعد لها مكان فى نفسى.

وكان فولتير يقول (من الطبيعى أن نتعرف الى الله منذ أن تتفتح عيوننا. الصنعة تدل على الصانع، وإنه لفن رائع ذلك الذى يجعل كل الكواكب ترقص حول الشمس. والحيوانات والنباتات والمعادن كلها منظمة بقدر وعدد وحركة).

إن فولتير الذى نفى من باريس أكثر من مرة، عزم على الرحلة إليها وهو فى الثمانين على مشقة هذه الرحلة يومئذ.. كان «الكاتب» الذى يسكنه يحركه.. فقد كتب مسرحية الكوميدى فرانسيز تسمى «ايرين». فكان الممثلون غير متفقين فيما بينهم وكادت مسرحية إيرين تتأثر بهذا الخلاف.. وكان فولتير، على ارتفاع السن، يحرص كل الحرص على أن تنجح مسرحيته ومن هنا آثر أن ينهد إلى باريس راجيا أن يصلح حضور كل أمر.

وقد هز قدومه باريس كما يقول اندريه موروا أكثر مما يهزها مقدم ملك. ففى الحدائق وفى المقاهى، كانوا لا يتحدثون إلا عنه.. ويدنو الناس بعضهم من بعض ليقولوا: «إنه هنا.. هل رأيته؟

وكان فولتير يستقبل من يفد عليه لابسا مئزره وقلنسوته الليلية ثم يعود ليعمل فى تصميمات مسرحية ايرين.. وقد توافد عليه شخصيات المجتمع الباريسى.. كما اصطحب بنيامين فرانكلين حفيده معه وطلب من فولتير أن يباركه، فمد العجوز يده وقال: الله والحرية.

كان فولتير يخشى أن تفشل مسرحية ايرين ولكنها لم تفشل بل لقيت نجاحا باهرا.. فكتب إلى فردريك الثانى يقول: (لقد كنت مشغولا بتجنب شيئين كانا يطاردانني فى باريس: هما الفشل والموت.. ومن العجيب أنني وأنا فى الرابعة والثمانين من عمرى، قد نجوت من مرضين قاتلين).

لم يتمكن من مشاهدة الحفلة الأولى لمسرحيته ولكنه فى الحفلة السادسة، أى فى الثلاثين من مارس، شعر بتحسن يسمح له بالخروج، فأصيبت باريس بمس من الجنون. وفى عربة زرقاء تزينها نجوم ذهبية، جلس ذلك الهيكل المتهدم فى ملابس من المخمل على أطرافها فراء.. وبيده عصا قصيرة، واخترقت به العربة المدينة.. واستقبلته كل الاكاديمية، ماعدا رؤساء الأساقفة، على عتبة الباب.. وازدحم الشارع بجماهير غفيرة كانت تصيح ان افسحوا مكانا لفولتير». وأتى حراس ليصطحبوه من باب عربته وأوصلوه إلى مقصورته. ولما دخل المسرح وقف النظارة وصاحوا قائلين «ليحيى فولتير! المجد للرجل العالمى!» ثم صممت الجماهير على أن يقدم الممثلون له تاجا. وارتفع الستار بين التمثيليتين، فرئى على المسرح تمثال لفولتير. وجعل الممثلون والممثلات يمرون أمام التمثال ويضعون على رأسه تيجانا من الغار.. وكانت الجماهير فى كل مرة تقف متجهة إلى فولتير وتصيح: (الشعب هو الذى يقدمها لك!) ثم صحبته الجماهير فى نصر عظيم إلى قصر دى فييت. وكانت النساء يحملنه.. ومن الطريف أنه كان يقول لهن: إنكن تردن، سيداتى أن تمتنى من فرط سعادتى).

لم يحظ كاتب أو قلما حظى كاتب بهذا التبجيل ولكن فولتير لم يفقد صوابه مع أن مديح الكتاب الكبار صدق وحق وحب حقيقى مطبوع غير مصنوع أو بالأمر..

قال له أحد الناس: «ما اكثر المهللين لك! فأجابه: وأاسفاه! انهم سيكونون بهذه الكثرة وهم يشاهدون تعذيبى!)

وما كاد فولتير يعود إلى منزله حتى انكب على العمل قائلا: إنه لم يعد أمامه إلا وقت قصير يعيشه، وإن عليه أن يعمل ليستحق ما حباه الجمهور من مظاهر التكريم.

وبعد هذا كله رفض كاهن أن يدفن فى قبر بل هدد بطرح جثمانه فى مكان القاذورات!!!

وذلك هو ما كان يخشاه فولتير.

وازاء هذا الرفض، دفن فولتير فى الريف فى «سلبيير» حيث كـان حفيده كاهنا هناك. أما قلبه فقد حفظ فى المكتبة الأهلية ولا يزال بها حتى الآن.

***

بالقلب.. والعقل.. والقلم عاش فـولتير حين مات شانئـوه لايرتفع بهم ذكر.. ولا يتردد لهم اسم.. ولا يحتفل بهم تاريخ.

obeikandl.com